٣ - رسالة فى الكلام على النفس الناطقة

نشرتُ هذه الرسالة فى العدد الخامس من مجلة الكتاب [ابريل ١٩٥٢] الخاص بابن سينا بمناسبة انعقاد مهرجانه فى بغداد . وهذه الرسالة عن النسخة الوحيدة المخطوطة بمكتبة ليدن رقم ١٤٦٨ ، وقد صورها المعهد الفرنسى بالقاهرة ، وسمح المسيو كوينس رئيس المعهد بنشرها. وقلت فى التقديم للرسالة هذه الكلمة الموجزة :

لا نملك الجزم بنسبة هذه الرسالة للشيخ الرئيس ، فعنوانها لا يتفق مع الثبت الذى أورده ابن أبى أصيبعة ، وليس هذا دليلا على عدم صحتها ، إذ جرت العادة أن يذكر للرسالة الواحدة عدة عناوين . ونستطيع بالنظر فى مضمون الرسالة وأسلوبها وسياقها أن نرجح أنها تمثل رأى ابن سينا فى آخر حياته ، حين اتجه اتجاهاً واضحاً نحو الفلسفية المشرقية ، كما نجد فى كتاب « الإشارات » . والفكرة الرئيسية التى تدور حولها الرسالة هى الصلة بين النفس والبدن ، وكيف تتلقى النفس الفيض الإلهى .

رسالة في الكلام على النفس الناطقة

للإمام الأوحد الجليل الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا

رحمه الله تعالى ورضى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه

وعن سائر علماء المسلمين . آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

رب يسر يا كريم

الحمد لله وحده. اعلم أن الإنسان مختص من بين سائر الحيوانات بقوة دراكة للمعقولات ، تسمى تارة نفساً ناطقة ، وتارة نفساً مطمئنة ، وتارة نفساً قدسية ، وتارة روحاً روحانية، وتارة روحاً أمريا ، وتارة كلمة طيبة ، وتارة كلمة جامعة فاصلة ، وتارة سراً إلهياً ، وتارة نوراً مدبراً ، وتارة قلباً حقيقياً ، وتارة لُبّاً ، وتارة نُهًى ، وتارة حِجًى .

وهى موجودة لكل واحد من الناس طفلا كان أو كبيراً ، مراهقاً كان أو بالغا ، مجنونا كان أو عاقلا ، مريضاً كان أو سليما .

وتكون هذه القوة فى بدء وجودها عارية عن صور المعقولات ، وتسمى حينئذ بذلك الاعتبار عقلا هيولانيا . ثم تحصل فيها صور المعقولات الاولية ، وهى معان متحققة من غير قياس وتعلم واكتساب ، وتسمى بداية العقول واراء عامية وعلوماً أولية غريزية ، وهى مثل العلم بأن الكل أعظم من الجزء ، وأن الجسم الواحد لا يشغل مكانين فى حالة واحدة، ولا يكون كله أسود وأبيض معاً، وموجوداً ومعدوماً . ويتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات

الثوانى إما بالفكرة وهى تعرّف ما فى هذه المعقولات الأُوَل بالتأليف والتركيب ، وإما بالحدس وهو تمثل الحد الأوسط فيها دفعة واحدة من غير فكر وتأمل . وأعنى بالحد الأوسط العلة الموجبة للتصديق بوجود شىء أو عدمه ، أى الدليل المعرِّف للحكم . وهـذا قد يكون عقيب طلب وشوق إلى حصول المعقولات ، وقد يكون ابتداء من غير اشتياق وطلب . ومهما حصل الدليل حصول المدلول لامحالة . ثم يحصل لها بهذه المعقولات المكتسبه هيئة وحالة تتهيأ بها لإحضار المعقولات متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب . وهذه الهيئة تسمى ملكة ، وتلك القوة ، فى هذه الحالة وبهذا الاعتبار تسمى عقلا بالفعل . وإذا كانت المعقولات حاصلة لها بالفعل مشاهداً متمثلا فيها سميت بهذا الاعتبار عقلا مستفاداً .

وهذه النفس الناطقة جوهر قائم بذاته ، غير منطبع فى بدن الإنسان ، ولا فى غيره من الأجسام ، بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها ، وله علاقة ما ببدن الإنسان ما دام حيًّا . وليس تلك العلاقة كتعلق الشىء بمحله ، بل كتعلق مستعمل الالة بالآلة . وهو حادث مع البدن لا قبله ، وليس يفسد بفساد البدن وموته بل يبقى كما كان ، إلا أنه [تحصل له حالة تسمى عندما] تنقطع علاقته عن البدن ، أى بعد انقطاع العلاقة بالموت ، سعادة ولذة ، أو شقاوة وألما .

وسعادته بتكميل جوهره ، وذلك بتزكيته بالعلم بالله ، والعمل لله . وتزكيته بالعمل لله هو تطهيره عن الأخلاق الرذيلة الردية ، وتقويمه عن الصفات الذميمة والعادات السيئة القبيحة عقلا وشرعاً ، وتحليته بالعادات الحسنة والأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة المرضية عقلا وشرعاً . وأما تزكيته بالعلم لله فتحصيل ملكة له ، بها يتهيأ لإحضار المعقولات كلها متى شاء من غير افتقار إلى اكتساب ، فتكون المعقولات كلها حاصلة له بالفعل ، أو بالقوة القريبة غاية القرب من الفعل ، فتصير النفس كمراة صقيلة تنطبع فيها صور الاشياء كما هى عليها من غير اعوجاج ، ومهما قوبلت بها بالتزكية العلمية تحصل مما سة العلوم الحكمية النظرية .

والتزكية العملية بالطرق المذكورة فى كتب الأخلاق ، و بالمواظبة على الوظائف الشرعية والسنن الملية من العبادات البدنية والمالية والمركبة منها ، فإن [فى] الوقوف عند مرضيات الشرع وحدوده ، والإقدام على امتثال أوامره أثراً نافعاً فى تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس الناطقة المطمئنة ، أعنى تسخير القوى البدنية الشهوانية منها والغضبية للنفس الناطقة المطمئنة .

وقد تبين فى العلوم الطبيعية أن الأخلاق والعادات تابعة لمزاج البدن ، حتى إنّ من استولى البلغم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم ، ومن استولت الصفراء على مزاجه استولى عليه الغضب ، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخلق ؛ و يتبع كل واحد منها أخلاق أخر لا نذكرها هنا . فلا شك أن المزاج قابل للتبديل ، فتكون الأخلاق أيضاً قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج ، فتعين على ذلك استعمال الرياضة المذكورة فى كتب الأخلاق . فمهما اعتدل مزاج الإنسان تهذبت اخلاقه بسهوله ، فلاعتدال مزاجه أثر فى ذلك . والمزاج الخارج عن الاعتدال ما تكون إحدى كيفياته الأربعة أو اثنتان منها غالبة عليه ، مثلا أن يكون أحر مما ينبغى أو أيبس مما ينبغى . وهذه الكيفيات الأربعة متضادة ، فالمزاج الخارج عن الاعتدال يكون مشتملا إما على ضد أو على ضدين ، أى ليس فيه حرارة ولا برودة بل كيفية متوسطة بينهما وكلما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال كان الشخص أكثر استعداداً لقبول الملكات الفاضلة العلمية والعملية

وقد تبين فى العلوم [الطبيعية] أن الأجرام العلوية ليست من امتزاج هذه العناصر الأربعة ، وهى عادمة هذه الأضداد بالكلية ، وكان المانع عن قبول الفيض الإلهى — وأعنى به الإلهام الربانى الذى يقع دفعة فيكشف به حقيقة من الحقائق العقلية — إنما هو ملابسة هذه الأضداد . فلذلك كلما يكون المزاج أقرب إلى الاعتدال كان الشخص أكثر استعداداً لقبول هذا الفيض وإذا كانت الأجرام العلوية عرية عن الأضداد بالكلية

كانت قابلة للفيض الإلهى. وأما الإنسان، وإن اعتدل مزاجه غاية الاعتدال، فليس يخلص عن شوائب الأضداد. ولاجرم مادامت النفس الناطقة متعلقة بالبدن لا يصفو قبول الفيض الإلهى، ولا تنكشف له المعقولات بأسرها وجملتها تمام الانكشاف، لكنه إذا بذل جهده فى التزكية العلمية واكتسب ملكة الاتصال بالفيض الإلهى، أى بالجوهر العقلى الذى يكون الفيض الإلهى بواسطته — ويسمى هو فى لسان الشرع ملكاً وفى لسان الحكمة عقلا فعالا — واعتدل مزاجه، وعدم هذه الأضداد المانعة من قبول الفيض الإلهى، فقد حصل له مشابهة ما بالأجرام الفلكية، فشابه بهذه التزكية السبع الشداد، أى الأفلاك السبعة. ولما انقطع علاقة النفس بالبدن بسبب الموت الذى يعبر عنه بمفارقة الصورة للقوابل، فإن اسم الصورة قد يطلق على النفس واسم القابل لها على البدن، وإن لم يكن معنى هذا القبول هو قبول المحل لما يحل فيه، بل كقبول محل التصرف للتصرف؛ فالبدن يقبل تصرف النفس، وبهذا الاعتبار جاز أن يسمى قابلا للنفس، وجاز أن تسمى النفس صورة، فجاز أن يعبر عن انقطاع العلاقة بينهما بمفارقة الصورة للقوابل. وإذا حصلت هذه المفارقة، والنفس قد اكتسبت الملكات الفاضلة العلمية والعملية، وقد زال المانع عن قبول الفيض الإلهى بالكلية وهو علاقة التصرف فى البدن، فيقبل الفيض الإلهى، وينكشف له ما كان محجوباً عنه قبل المفارقة، فحصل له مشابهة بالعقول المجردة التى هى أوائل علل الموجودات، إذ الحقائق كلها منكشفة لتلك العقول.

وقد عرفت أن الله تعالى خلق أولا عقلا ثم بواسطته عقلا آخر وفلكاً، وبواسطة العقل الآخر عقلا ثالثاً وفلكاً ثانياً، على الترتيب الذى ذكرنا. فالعقول أوائل العلل.

[قوله: إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابه جواهر أوائل العلل أى العقول. وقوله: إذا اعتدل مزاجه بعدم الأضداد أى الكيفيات المتضادة، وشاكل بها السبع الشداد أى الافلاك السبعة. وفارقت صورته القوابل أى انقطعت العلاقة التى بينه وبين البدن فشاكل به العلل الأوائل أى العقول المجردة].

فهذا ماأردنا ذكره فى شرح هذه الكلمة الإلهية بحسب هذا المقام . وأما البرهان على إثبات جوهرية النفس الناطقة ، وقيامها بذاتها ، وتجردها عن الجسمية ، وعدم انطباعها فى الجسم ، و بقائها بعد فساد البدن ، و كيفية أحوالها بعد الموت أهى منعمة أو معذبة ، ففيه طول و بسط ، ولا ينكشف ذلك إلا بعد ذكر مقدمات كثيرة . وقد اتفق لى رسالة مختصرة فى بيان معرفة النفس وما يتعلق بها فى بداية أمرى منذ أربعين سنة على طريقة أهل الحكمة البحثية ، فمن أراد معرفتها فليطالعها فإنها مناسبة لطلبة البحث ، والله تعالى يهدى من يشاء إلى طريق أهل الحكمة الذوقية ، وجعلنا و إياكم فى زمرتهم ، إنه ولى ذلك ، والقادر عليه . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خيرته من خلقه سيدنا محمد وعلى آله وعترته الطيبين الطاهرين وعلى صحبته أجمعين .

وكان الفراغ من مشقها فى صبيحة التاسع عشر من ذى القعدة الحرام سنة ٦٨٤ على كاتبها لنفسه ولمن شاء أن يقرأ من بعده ، الفقير أحمد ولى الهندى المالكى الساعدى الخزرجى . عفا الله عنه ولجميع المسلمين . آمين .